لا يرعى الدكدك قطعاناً كبقيّة انواع الطريدة في هذه الصحراء انما يرى منفرداً او ازواجاً وندر مشاهدة زوجين يرعيان سويّةً وقد روى لي بعض الاهلين انهُ نظر مرةً واحدة ثلاثة ازواج من هـذا الحيوان تمشي سوية وقد قصّ ذلك على ذويهِ فلم يصدقوهُ لمعرفتهم بقلّة تآلف هذا الحيوان. امّا الاماكن التي يغزر فيها وجود الدكدك فهي صحراء الصومال العيسى واخصّ منها بذكر سهولُ لسحرات وآداكا لا وآرثو حيث يجد الصيّاد الدكدك يقفز بين الادغال وعلى حافة الانهار الناشفة. وقد رام بعض الافرنج ان يدجنوا هـذا الحيوان كالغزال المعروف فلم يصيبوا الى اليوم المرمى وقد أُتي حاكم مستعمرة جيبوتي برضيع منهُ فعمل ما بوسعه لتربيته وكانت هناك عنزة ترضعهُ لبنها فعاش اشهراً قليلة ومات وما ذلك الّا لان جنسه معتاد على كثرة الحرّ والحرّيّة

يمين العلي

رواية تاريخية للاب س. ت اليسوعيّ

الفصل الحادي عشر

خاتمة عالم

رسالة راسيوس الى صديقهِ لوسيليوس في بيروت

من معسكر اورشليم في ١٣ يونيو

كأنّي بك يا صاح ظننتني ميتاً ولولا حراسة العلويين ونظر الآلهة لما كنتَ كذبت في ظنك. وهاءنذا اليوم قد ابرمتُ عهداً جديداً مع الحياة بل قُلْ مع الصحة والعافية. ولا إخال صديقنا العزيز لاونطيوس سها عن مكاتبتك كما كنتُ اوصيتهُ في ذلك اذ كنتُ مضّجعاً وانا بين حيّ ومَيت وكتفي مخلوعةٌ وصدري مفتوح بطعنة جانفة. فترى اني بلغت الى حافة القبر وانّ رجلي كادت تصعد سفينة الموتى التي يقودها كارون

فهذا كلهُ قد اعلمك بهِ لاونطيوس لكنّ هذا الصديق الصدوق سكت ولا مراء عمّا بذلهُ في سبيل شفائي من الوسائل الفعّالة فان انا الآن جالس بالدعة والهنـاء على

مدخل خيمة طيطس فان الفضل في ذلك لهـذا الخلّ الوفيّ الذي نفعني على قدر اسكولاب اله الطبّ . وان كنت تعدّني في عداد خلّانك فاشكر لهذا الضابط الذي لم يحرمك صداقتي . فانهُ مع كونهِ نصرانيًا (او بالحريّ لانهُ نصرانيّ) قد انقـذني من سهام العـدوّ اذ كادت تذيقني سكرات الموت ثم تولّى امر تمريضي كالامّ الحنون فلم يبرح خيمتي ساهرًا عليَّ ليلًا مع نهـار الى ان اعلن الطبيب بزوال الخطر وقرب شفائي . فتأكّدْ ايها العزيز انّ فعل لاونطيوس لمن افعال الشهماء التي لا يأتي بمثلها بشر فلله درّهُ ما اعظم نفسهُ واشرف همّتهُ

انّ مودّتي لك حملتني على تسطير هذا الرقيم وان لم ابرأ تمـامًا من جراحي . فانّ يدي الشمال لا تزال خدرةً مخبولةً لا احرّكها الّا بألمٍ فلا اعلم أيمكنني بعد هذا ان اركب جوادي واضبط عنانهُ في السير . امّا جرح صدري فانهُ قد اندمل بعد الجهد الجهيد

وان سألت عن مسكني فاعلم اني في مضرب قائدنا العظيم طيطس نفسهِ . وقد قيل لي اني أُصبتُ بجراحي وانا ساعٍ في انقـاذهِ من ايدي اليهود . فاراد ان يظهر لي شكرهُ بان جعلني في خيمتهِ وكان يتلطّف صباح مساء فيمرُّ عليَّ ليستخبر عن صحّتي . وفي هذه الأيام احوجتهُ الحرب على ان يقلّل من عيادتي لانّهُ قد فتح قسمًا من المدينة وهو لا يغيب ساعةً عن جنودهِ لئلّا يبغتهم العدوّ فيستنهض همّتهم . على اني عارف حقّ المعرفة انّ ابن قسبسيانوس لم يَنسني وانّ جراحي قد مهّدت لي سُبُل المعالي اكثر من عشرين موقعةً أبلي فيها البلاء الحسن . ومن ثم سواءٌ عليَّ اخوض معامع الحرب ام لا

ولعلّك تتعجّب من امري فتقول : أهذا راسيوس الضابط الذي كان يتشوّق الى الحرب العوان ؟ أفيُسَرّ بجراحهِ لينجو من اهوال الحرب ؟ كلّا لا تروّعني الحرب ولا تهدُّ عزيمتي ويلاتها وانّما أُسَرّ لكوني وقعتُ كريمًا دون ان أُهرق شيئًا من دم قومٍ شاركتهم في الجنسيّة فتاةٌ من بيروت تميل اليهـا عواطفي . فكيف يا تُرى ترضى بان تقترن بجنديّ تلطّخت يداهُ بدماء شعبها . فناشدتك الالهة بان تبلّغهـا ان الضابط المأسور بحبّها بريءٌ من دم اليهود مع كونهِ لم يقصّر في واجباتهِ الجنديّة وخاطر بنفسهِ كحرّ لا يهاب الموت

هذا ولو كانت قواي تسمح لي بالعودة الى بيروت لطلبتُ من قائدنا رُخصةً اقضيها في جواركم فابلّ من سقامي قرب الاحبابَ. لكنَّ الاحوال تقضي عليَّ بان ابقى هنا الى آخر الحرب

ويا لها من حرب مشئومة فانّنا لم نَعُد نقاتل عدوًّا يحاربنا فنحاربهُ بل نحضر مجزرة قوم حلفوا بان يموتوا في مدينتهم ولا يطلبوا اماناً. ومنذ ايّام رأى قائد الجيش مع اركان الحرب انَّ الأولى بنا ان نكفَّ عن مقاتلة رجالٍ يئسوا من الخلاص فاستقتلوا فنجتزئ بتشديد الحصار وتضييق نطاقهِ ونحن نعلمُ ان الجوع قد برَّح باهـل اورشليم واجهدهم فيفتك بهم فتكاً ذريعاً. هذا فضلاً عمَّا في قلوب زعمائهم من الخزازات التي تحمل بهم على شهر السلاح على اقرانهم

والحقُّ يقال انَّ حالة هذه المدينة التي كانت من امّهات المدن وحواضرها لمماً يفتّت الاكباد. فاعلم يا صاح انّنا لمّا باشرنا الحصار منذ ثلاثة اشهر كان فيها عدد اليهود نيّفاً والف الفٍ اتوا مدينتهم المقدّسة لعيد الفصح واليوم قد مات منهم بالحرب والجوع اكثر من نصفهم. امّا حالة الاحياء فهي اسوأ من حالة الموتى. فترى هؤلاء المساكين بين رجال ونساء وصبيـان يهيمون في وجههم يلتمسون شيئاً يسدُّون بهِ رمقهم فلا يكادون يجدون. امّا حامية البلد فانّهم يحافظون على الطعام الباقي بحرصٍ لا شبيه بهِ مدّعين انهُ لهم فقط ليتمكّنوا من الدفاع عن اورشليم. بل رُبَّما يطوفون البلد وهم مدجّجون بالسلاح فيدخلون البيوت عنوةً وينهبون ما بقي فيها من القوت

وكثيرون من الاهلين صوناً على حياتهم يخرجون ليـلاً تحت جنح الظلام من ابواب المدينة فيطوفون حول الاسوار لعلّهم يجدون شيئاً من نفاية طعامنا يتقوّتون بهِ. فيراهم العسس كاشباح موتى خرجوا من قبورهم وجلودُهم لاصقـة بعظامهم وعيونهم غائرة في حجاجها وفي اوّل الامر كانت تأخذ جنودنا الشفقة عليهم الّا انَّ طيطس امر بقتلهم لئلّا يطول الحصار بذلك

ومع ما صار اليهِ القوم من سوء الحال وشرّ الدمـار لم نسمع حتى الآن انّهم ينوون فتح ابوابهم بل كلهم مصرّون على مناصبتنا يحتملون بصبر جميـل كل هذه الخطوب حبًّا بمدينة ملوكهم. ومنهم من يقضي ايّاماً لا يأكل غير اعشاب يابسة كالحيوان او جلودًا ينقعونها بالماء فيأكلونها. وغيرهم يعمد الى العظام او قرون البقر

فيدقونها ويتخذونها طعاماً. ومن وجد منهم حيوانات قذرة كالفئران والجرذان يعدُّ نفسهُ سعيداً. اما البُرّ فقد اضحى المدّ منهُ يباع بوزنة من الفضة (٦٠٠٠ فرنك) على انهُ صار اليوم اعزّ من الغراب الاعصم

وقد اخبرني بعض من فرّ منهم طالبين الامان خبرًا ما كنتُ لاصدّقهُ لولا انهُ اكّدهُ لي بايمانٍ محرّجة. وهو انّ صوت الطبيعة لم يعد مسموعاً في قلوب كثير من الوالدين فترى الآباء والأمهات يحرمون اولادهم قوتهم ليضنّوا بهِ على نفوسهم وربّما قتل بعضهم بعضاً على بيتة ليلة. ومنذ نحو اسبوع مرّ بعض جنود حنّا الجثّي في حيّ من احياء المدينة فشمّوا قتار شويّ فما كان منهم الّا ان كسروا الباب ودخلوا فاذا بامرأة تطعت طفلها شطرين كانت تشوي قسماً منهُ لتسدّ بهِ جوعها الكلِب. فلمّا رأتهم قدّمت لهم من شوائها. واذ رأتهم يستغربون فعلها قالت : « هيّا كلوا ولا تكن قلوبكم على ولدي احنّ من قلب امٍّ عليهِ »

هذا برضٌ من عدّ ووشل من بحر ولو اردتُ ان اصف لك كلّ ما بلغني عن حالة اليهود لطال بي الكلام. وحسبك ان تعلم انّ كثيرين من جنودنا الذين لا يعرفون الرحمة قد اخذهم السأم من قتل هؤلاء الصعاليك فيقولون جهارًا: « انّهم جنود وليسوا بجزّارين » وهم يطلبون ان يهجموا على المدينة هجمةً اخيرة لئلاّ يروا اعداءهم في هذه الحالة من الضنك والمجاعة

على انّ بعضاً من اصحابنا وهم المسيحيّون يسعون طاقة جهدهم في مساعدة هؤلاء المنكوبين. اخصُّ منهم بالذكر صديقي لاونطيوس الذي يحارب في ساحة القتال كالاسد القسور الّا انهُ بعد الوقائع اعطف من امّ على ولدها. فاذا رأى احدًا من غرثى اليهود مهاجرًا الى معسكرنا دافع عنهُ لئلاّ يصيبهُ اذًى وسدَّ رمقهُ. وقد عاينتهُ يوم امس وهو يعطي رجلًا منهم اكبر شطر من طعامهِ. وقد تعجّبت من ذلك غاية العجب مع علمي بان اليهود يعدّون النصارى كألدّ اعدائهم. فلعمري اني لا ادرك كيف يكافئهم تَبَعة المسيح بالحُسنى عن بغضهم

ويزيد عجبي لصنيع هؤلاء النصارى اذا ما قابلتُهُ مع فظاظة جنودنا مع اليهود بل ترى طيطس نفسهُ الذي ضُرب المثل بحلمهِ يتشدّد على الذين يفرّون من المدينة ويلتجئون اليهِ فلا يرثي لحالهم. فانهُ منذ خمسة عشر يوماً اخذ منهم ٥٠٠ فعلّقهم على

صلبان ومثّل بهم ليكونوا عبرةً لاخوانهم ولكنَّ الامر كان على خلاف ظنّهِ . لانَّ الذين رأوهم من داخل المدينة زادوا تحمُّساً وآثروا الموت كرماء تحت ردم مدينتهم على الاستسلام . واخذوا يشتمون يوسيفوس المؤرخ الذي جاءهم وسيطاً ليستدعيهم الى طلب الامان

ومن غريب الاتفاق الذي استلفت اليهِ انظاري صديقي لاونطيوس انَّ هؤلاء المنكوبين الذين صلبهم طيطس انَّما صُلبوا فوق اكمةٍ تُعرف بالجلجلة وهي التي عليها صلب اليهود منذ نحو اربعين سنة يسوع المعروف بالمسيح الذي يعبدهُ النصارى . فكان هذا الاتفاق كآيةٍ علوية يحسبها جنودنا النصارى كعقابٍ لما عاملوا بهِ ذاك البارَّ اذ طلبوا انَّ دمهُ يجري عليهم وعلى اولادهم واكرهوا بيلاطوس الحاكم على صلبهِ

اني أُسرع الى ختام كتابي هذا لئلا تفوتني فرصة ساعٍ يوصلهُ طيطس اليكم ولعلَّ هذه آخر مرَّة اكتب اليك من اورشليم لانَّ اعمال البريد لم تعُد تجري بنظام والمدينة على وشك السقوط . وانشاءت الآلهة نكن عندكم قريباً فنتجاذب عياناً اطراف الحديث

ولكن ارجوك الَّا تنسى تلك الفتاة التي تحنُّ اليها اضلاعي . . . فان امكنك ان تبلّغها اخباري وتعلمها باحوالي فلا تتأخر . . . كما اني انتظر منك ان تفيدني عن امورها ما يحيط بهِ علمك . . . أتُراها سهتْ عني او بالحريّ ألم يستولِ على قلبها البغض اذ تراني مشغولاً في حرب قومها . فبالله عليك قُلْ لهـا اني قائم على وفاء العهود واني وددتُ لو أُنقذ قومها ممَّا يحيق بهِ من التهلكة . وعلى كلّ حال فلتعلم انَّ يديَّ لم تريقا نقطة من دم شعبها . فليُحظِني السعدُ بها قريباً . . . اراني تائهاً في افكاري فاقبل عذري واعتبرني كصديقك المخلص الضابط راسيوس

*

كلاَّ ساء ظنّ راسيوس اذ حسب انَّ شدَّة المجاعة كادت تلقي الى الرومان بمقاليد مدينة اورشليم . نعم انَّ الجوع كان يذيق اليهود اوجاعاً أمرَّ من الموت الَّا انَّ عنادهم كان يزداد مع الأيام على قدر ما كان الرومان يأخذون بخناقهم

على ان طيطس لم يشأ ان تبقى جنودُهُ فارغةً بلا عمل بل امرهم ان يملأوا الخنادق التي تحيط بقلعة انطونيا (راجع خارطة اورشليم ص ٦٦٦) فشيَّدوا اربعة

جسور ضخمة توصل بينهم وبين ذاك الحصن الحريز . وكان اليهود لما نالهم من خور القوى وانحطاط العزيمة يرونهم دون أن يتصدّوا لهم وهم يأملون انَّ الله لا يهمل شعبهُ بل يصنع لخلاص مدينة قدسهِ عجائب خوارق كما فعل أيام حزقيًا اذ ضرب ملاك الله معسكر البابليين واباد قوّاتهم

ولمَّا كان الثلاثون من شهر حزيران دقّ النفير في وسط الليل فهجم الرومان من كل جانب على قلعة انطونيا على نور المشاعل والنفّاطات . فسمع اليهود هذه الجلبة ولم يستطيعوا ان يدافعوا عن هذا المعقل المنيع الذي كان كفوءًا لردّ كلّ غارات العدوّ لولا حالة المدافعين من الهزال والضنك . وغاية ما امكنهم فعلهُ انَّهم قاموا يتراكضون الى جهة الهيكل ليلوذوا بحرَمهِ . على انَّ الرومان ادركوهم وقتلوا منهم عددًا لا يُحصى طول ليلهم ولم يكفُّوا الّا عند طلوع الفجر اذ رأوا اكداساً من جثث القتلى وجداول من دمائهم تجري فرويت سيوفُهم وكلّت ايديهم

على انَّ الحرب لم تضع اوزارها بفتح قلعة انطونيا فانَّ الرومان لمَّا دخلوا عنوةً في هذا الحصن هالهم منظر الهيكل الاورشليميّ وهو اشبه بمدينة حريزة منهُ بمعبد دينيّ

فرأوهُ اذ ذاك لاوّل مرَّة واذا هو عبارة عن جبل تُحدق بهِ الابنية كالسوار بالمعصم وكان امامهُ ثلاثة ارصفة منظَّمة على شكل درج . فالرصيف الاوّل كان طولهُ عشرة امتار وكلُّهُ مبني بنحيت الحجارة الضخمة وفوقهُ رواق اعمدة من رخام لا يحرّكها الوفٌ من البشر (راجع انجيل مرقس ١٣ : ١ — ٢)

ومن خلال هذه العواميد كان النظر يرى ساحة متَّسعة مفروشة بالفسيفساء تدعى ساحة الامم التي لم يسمح اليهود للوثنيين ان يتعدّوها . وكان الرومان يرون فوق هذه الساحة ساحةً أُخرى تُعرف بساحة النساء كنَّ يصعدن اليها باربع عشرة درجة ويدخلن في باب مصفَّح بالفضَّة والذهب علوُّهُ عشرون ذراعاً

ووراء هذه الساحة في وسط الحرم كانت درجات أُخر مع باب من نحاس قورنتس يسمَّى باب نيكانور كان يفتحهُ ويقفلهُ عشرون من عمَّال الهيكل وكان ينفذ منهُ اليهود الى رواق يبلّغهم ساحة بني اسرائيل وهي تنتهي بدرجة واحدة تفصلهم عن ساحة بني لاوي التي فيها كان مذبح التقادم منصوبًا لا تزال تسيل فوقهُ دماء الذبائح ويُحرق البخور العطر . وهذا المذبح كان مربَّعاً طول الجانب منهُ في اسفلهِ ٣٢ ذراعاً وعلوُّهُ ١٥ ذراعاً

وكان الرومان يرون من وراء هذا المذبح واجهة الهيكل عرضُهـا مئة ذراع في مثلها علوًّا. وكلُّها من الرخام الغالي الثمن عليهـا صفائح الذهب. فذاك الباب كان لا يدخلهُ غير الكهنة. وكان لهذه الواجهة باب بلا رتاج عرضهُ ٧٠ ذراعاً في علوّ ٢٥ ذراعاً يجتاز منهُ الكهنة الى رواق الهيكل. وكانوا يدخلون من الرواق الى المقدس بمدخل ثانٍ عرضهُ ٣٠ ذراعاً في ١٦ علوًّا كانت تزينهُ اغصان جفنةٍ من الذهب تتدلّى منهـا عناقيد مثلها على طول قامة الانسان

امّا المقدس ففيهِ كانت مائدة « خبز الوجوه » الذي يُعرض كلَّ يوم امام الربّ. وهناك كانت المنارة ذات السَّبع الشُّعَب من الذهب المصمت. ووراء المقدس كان ستر منسوج من الذهب والارجوان وهو الحجاب الذي كانت تتجلّى من ورائهِ عظمة الله وفيهِ قدس الاقداس

فذاك كان الهيكل الاورشليميّ الذي راءهُ الرومان منتصباً بازائهم كانهُ يسخر من قوّتهم وجبروتهم. فان كانوا لا يتجاوزون حدودهُ وينتهكون حرمهُ فلا يمكنهم ان يعلّلوا نفوسهم بالانتصار التامّ

وكانوا يودّون لو ابقوا هذا الاثر على هيئتهِ ومحاسنهِ لولا اضطرارهم الى محاربة اليهود. وكان زعماء اليهود اوّل من انتهك حمى الهيكل وجعلوهُ مغارةً للصوص بدلًا من مقام للصلاة. فانَّ العازر بن سمعان كان جعل الهيكل كشكنةٍ لجنودهِ. وبعـد ذلك لمّا كان يوم الفصح اضحى الهيكل كساحة حرب فانَّ جنود يوحنّا الجِشّي باغتوا اليعازر وذويهِ وخلطوا دماءهم بدماء الذبائح الشرعيَّة وفي مساء بعض الايّام التـالية سمع اليهود في قدس الاقداس جلبةً ثمَّ اصواتًا تصرخ: « هلمَّ نخرج من هنا » ومنذ تلك الساعة تثاقلت عليهم يمين العلي (ستأتي البقيَّة)

مطبوعات شرقية جديدة

تاريخ التمدُّن الاسلامي

تأليف جرجي زيدان منشئ الهلال (الجزء الثاني ١٩٠٣ ص ١٩٢

سبق لنا وصف الجزء الاوّل من هذا التاليف المهمّ والثناء على صاحبهِ الاديب